الغاية وراء العمل

بقلم الاديب اسحق افندي صروف (١)

ان وقوفي بينكم وقفة الخطيب وتلاوتي عليكم بعض ما سمحت به الفكرة الخامدة مما لا يخفاكم مضمونة لجاسرة لا تفتقر لي وانما املي من واسع حلمكم بسبل عليها ستارًا من العذر وحجابًا من اللطف لا يرحتم غرة في جبين الدهر وأسرة فضل يشدّ بكم الازر

نحن في عصرٍ مُصِرَ في رياضهِ دوحُ العلوم اليانع وزُحزحت عن افقهِ حنادسُ الجهلِ وقد صدّعها نيّر الفنون الساطع وزمانٍ تبارت في حلبتهِ رهانُ الهمم والخواطر وتجارت في حلقة مضمارهِ جيادُ الحميّة الضوامر عصرٍ نسمّت فيهِ المدارك أوجَ المعارف وتجلببت فيهِ ابكار العقول بوشي البرودِ والمطارف جنانهُ انيقة يانعة شائقة رائعة نيس فيها ارباب العقول من العجب والخيلان وتترنّحُ فيها غادات الافكار بقوام ولاقوام البان . جنانٌ فاحَ عرف طيبها فعطّر الاكوان وتناقلت ارداف اغصانها بالقطوف الدوان . فيها فاكهة ونخل ورمّان من كل فاكهةٍ بها زوجان تلك هي جنان العلوم وتلكمُ هي حالة هذا الزمان ولن يتمتع بها الاّ مَن اطّرح التواني وانفق في تطلبها الدقائق والثواني

اذا ما تمنّى المرء ادراك غايةٍ عليهِ باهمال التقاعدِ والكسلْ
فلا تبلغ الغاياتُ من دون همةٍ ويحظى بها الانسان بالكدّ والعملْ

نعم ان الغاية مرهونة على الكدّ والعمل وتجٌ يزمهُ ركب الاجتهاد ولا يبلغهُ مقعد الكسل وان بلوغ الغايات صعبٌ لمن نخذ الخمولَ دينهُ وشعارهُ وقريب التناول لو تطالبهُ فتى حركةُ الامل وقد اصبح له منارًا ولا انكر على احدٍ مطالعاتهِ اخبار العصور الغابرة وما جرى فيها من سالناتٍ ضاهت الامثال الطائرة واخصُّ بالذكر منها تاريخ نابليون العظيم الذي نهضت بهِ همتهُ من حضيض الذل الى سدة العز وارفع ذرى الشرف والمجد فان هذا المقدام كان في درجةٍ خاملةٍ بين رصفائهِ من ذوي الدرجات الوضيعة والحالات الخاملة بالاهال ولكنهُ كان في صدرهِ روحٌ يذكيها وطيس الحميّة والنشاط وتستنزها فواعل الجدّ والغيرة فكان يحنّ ويتطاول الى ادراك الرتب السامية ويعبث بافكارهِ واميالهِ نسمات التقدم والنجاح فتثير منهُ ثائر آمالهِ وتحيي فيهِ ميت اشواقهِ حتّى اذا نهض ونهضت الرغب في العمل اقعدتهُ صعوبات قوّضت دعائم مقاصدهِ وحالت لديهِ حوائل جمةٌ اوشكت

(١) من خطبة تلاها في جمعية زهرة الآداب في المدرسة الكلية في ٢ مايو (ايار)

اكثر من مرة ان تثبط عزيمته وتبدد بعضها البائر جيوش آماله وما برحت تلك الروح في اشتداد تلقي به في وهاد الصعوبات وتطرّق به في مسالك حرجة آلمت به بعد مزيد النصب والعناء على محط رغائبه ومرمى مطالبه بما اعرب عن تسنمه عرشًا غاية في العظمة والعراقة في المجد ألا وهو عرش فرنسا الخطير بيد انه لم يهدأ منه تائر خاطره ولم يشف غليل مطامعه وفهب على الدول الاوربية يكسر نيرها ويحطم شوكتها وكان النصر معقودًا برايائه والظفر يتلو سورة الفتح بآياته فيجبي له من آثار انحطاطها ذكرًا طويلاً ويعدّ له على مناكب سطوتها منصبًا جليلاً الاّ انه تعدّى طور التعقّل وعرج وراء الشرائع والنواميس ولم يفقه ان فوق يده يدًا تذل الكبار وترفع الصغار وتحطم قوّات في مصدر وجودها . وهلة كيانها فاهبطت تلك اليد رفيع مجده وحجبت طالع سعده ووارته في ظلمات الإسر وحشرته في ضيقة القبر وتجلّت من بعده بجلاء العز والبقاء سبحانه يمضي الكل ويخلد من بسط الارض ورفع السماء

فتح لنا ايها السادة ان من طلب غاية أيًا كانت ثمّر وراءها عن ساعد الجد والانكماش وافرغ الوسع للحصول عليها فان بلغها فنعمًا والاّ فقد ادرك غيرها ممّا لا يقل عنها اهمّية او احطّ درجة وما احسن ما قال الشاعر

وعليّ ان اسعى وليس عليّ ادراك النجاح

وان اعتبرنا ذلك في العلماء البلغاء والشعراء ممن اطلعوا في سماء العلوم فراقد افكارهم وابرزوا الى عالم التمدن مكنونات اسرارهم حصحص الحقّ وامض لنا ما توخيناه من الوقوف على نتيجة اعمالهم فمنهم من كان خامل الذكر ليس من اسباب النجاح في شيء ولكنه ذو فكرة نيّرة متوقدة وهمّة استنهضت بوادر ذهنه واستفدحت زناد قريحته فجاءت بما اسفر عن ابن خلدون وابن الاثير وشاكسبير وكورنيل وراسين ومن شاكلهم من الكتبة البلغاء

وان اعتبرنا ذلك في المخترعين وارباب الصنائع نرى هنالك ما يؤيّد حقائق موضوعنا وحسبنا على ذلك ان نعيد ما كتبته احدى الجرائد عن اديسن قالت انه مرة استغرق في شغله مدة ثمان واربعين ساعة لم يذق في خلالها طعامًا ولا لذّة وسنة واغرب من ذلك كله انه عند ليلة زفافه فكان يقلّب فنوغرافه والمدعوون حيارى من تغيبه جلوسًا في انتظاره

فعلى م ايها السادة تتقاعد عن السعي وقد اثبتت لنا اخبار الاوائل والاواخر ان النجاح معقود بنواصي الاجتهاد وبلادنا والحمد لله كانت منبع العلوم والفنون وما كان مقدورًا لاسلافنا لا نحرم منه نحن اذا سعينا سعيهم لاننا من طينة واحدة

الى مَ بني أُمَيّ نبيتُ على الثرى ونحنُ لنا في قُنّةِ المجدِ منصبُ
وحتّامَ نرضى بالقليلِ ودونهُ ومن دوننا نيلُ الامانيّ مطلبُ
وأعجبُ منّا كيفَ نقضي بارضنا ظِمأ ولنا نهرُ المجرّةِ مشربُ
ونحملُ ضيمَ النفسِ بالذلِّ والرضا ونحنُ الى العلياءِ نعزى ونندبُ
وأنّا اذا شئنا الكواكبَ مطلعاً غَدَتْ نحونا كلُّ الكواكبِ تغربُ
ولو شاقنا نيلُ المآربِ والعلى لما فاتنا في ساحةِ الدهرِ مأربُ
بظلِّ امير المؤمنين مليكنا وسلطانِ عدلٍ دونهُ الظلمُ يحجبُ

فهو الذي اوردنا مناهل تروي صدى القلوب واسبغ علينا نعماً تجلو صدأ الكروب

ملكٌ راحاتهُ وكَفاهُ شادتِ العلمَ على ركنٍ وطيدْ
فهو التأريخ يجلو مشيدًا فليعش سلطاننا عبد الحميدْ

ولقد كان ارتجّ عليّ الكلام وضاق ذرعي عن الامتثال في مثل هذا المقام لولا نفحة من عاطر حلمكم نشرت فاحيت الفؤاد وبارقٌ من انوار لطفكم تبسّم فهداني سبيل الرشاد . وان كان قصر الوقت لا يسمح لي بالاسهاب عما تصدّيت لايضاحهِ وكشف النقاب عن امر خبا لديّ ضوء مصباحهِ اكتفيتُ بما تقدّم راجيًا منكم العفو عما تسلّل خطابي من القصرِ والكلال فسبحان من لا يؤخذ بزلة ولا يرمى بوصمة انهُ وحدهُ ذو العصمة والكمال

لكل امرء في اعين الدهر عثرةٌ ودون عثار المرء ما يستر العذرُ
ولولا اعتقاد البدر في الشمس انها توافيهِ بالانوار لم يطلعِ البدرُ

البريد المصري

لا تزال ادارة البوسطة المصريّة مضطردة خطة التقدم والارتقاء لا لانها جسم حيّ نامٍ بنفسها بل لان العقل الذي يديرها يعلم اساليب النجاح والهمة التي تنولاها لا تعرف الكلام ولا الملال . ونجاحها ظاهر محسوس يشعر بهِ كل من لهُ اعمال كثيرة في هذا القطر وهو سائر على سلسلة حسابيّة . فقد بلغ عدد المراسلات التي تداولها الناس في العام الماضي داخل القطر المصري ١١٥٢٤٠٠٠ وكان في العام الذي قبلهُ ١٠٩٢٠٥٠٠ وقد زادت المراسلات الواردة من البلدان الاجنبيّة والمرسلة اليها فبلغت في العام الماضي ٥٥٩٢٠٠٠ وفي الذي قبلهُ ٥٢٦٢٥٠٠ . وزاد مقدار النقود التي أُرسلت بهِ فبلغ في العام الماضي